العنــــونة: دلالاتها الفنيّة وتحوّلاتها الإيقاعية في ديوان" هذا الأزرق" لمحمّد بنّيس

أ/عـواج لعريـبي

جامعة البويـــــرة

جاءت بداية الشّعر المعاصر في المغرب متأخرة، لا عن البلدان العربية في المركز (المشرق) فقط، بل وأيضا عن أقطار المغرب العربي، فمحاولات المغاربة لكتابة قصيدة من الشعر الحرّ لم تنتج حركة في اتجاه الشّعر المعاصر إلاّ بعد مخاض طويل في معترك الوفاء للتفعيلة ولرؤية رومانسية لطالما مجتها أذواق المغاربة قبل أن يتحرّر الشعر منها منتصف الستينيات[1].

إن الشعّر "حالة فردية بصيغة الجمع"، بل هو حالات من الاستكانة وأخرى من الهيجان، جميعها تحتاج إلى قرارات نقدية للكشف عن تفاصيلها وتشكيلها في ناحية البناء اللغوي وناحية الصورة الفنيّة وناحية التحوّلات الإيقاعية، مع الاعتراف باستحالة ثبات الرؤى النقدية لعدم ثبات أدواتها، وقبل ذلك لتنوّع طرائق الشعراء في بناءات قصائدهم بحسب كفاءة وجدارة كل شاعر في التعامل مع نصوصه والارتقاء بها إلى الشعرية.

بيبليوغرافيا الكتاب (الديوان) [*] :

" هذا الأزرق _شعر_ للناقد والشاعر المغربي محمّد بنّيس

طُبع _ط1_ بالدّار المغربية المعروفة : دار توبقال للنشر بالدّار البيضاء سنة 2015، صورة الغلاف بلون رمادي (عمل الفنان مهدي القطبي، في صفحة الغلاف الأولى)، أما صفحة الغلاف الأخيرة فعبارة عن (صورة فوتوغرافية للشاعر محمد بنّيس جاءت بالأبيض والأسود (كلاسيكية) للمصوّر الفرنسي جيرارد زورنر).

فيما جاء حجم الديوان بأكبر من الحجم المتوسط في حوالي (296 ص).

1- عُد إلى : تاوري يوسف، الشعر الحديث في المغرب العربي،ج2، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2006.

* مخطّط البيبليوغرافيا خاص بصاحب البحث .

" **هذا الأزرق** " : هو العنوان الرئيس للدّيوان كُتب باللون البنّي أعلى الدّيوان وأعلاه اسم الشاعر محمّد بنّيس وأسفله العبارة _ شعر _، وأسفله في شكل لوحة فنيّة اختار لها الرسّام مهدي القطبي الخط العربي العتيق (الكلاسيكي) بألوان باهتة ومتباينة، وجاء = في شكل عمود إطاره بلون رمادي .

أُدْرِجَت تحت العنوان الرّئيس " هذا الأزرق " عناوين فرعية جاءت على النحو التالي :

- نحو الأزرق (من ص 7 إلى ص 48) .
- تنويعات على الأزرق (من ص 49 إلى ص 68) .
- من جهة المتوسط (من ص70 إلى ص 71 : صفحتان فقط).
- قبل الأيام وبعدها (من ص73 إلى ص84).
- لطخة المجهول (من ص 85 إلى ص 110).
- دعوة الميناء (من ص 111 إلى ص 128): وفيها قدّم محمّد بنيس لنصوصه بمقولتين : الأولى لـ : " ابن خلدون" والثانية لـ " بوجين دولاكروا " .
- طرف آخر من الأزرق (من ص 129 إلى ص 142).
- مسرح الأزرق (143 إلى 146) .
- غبطة متّصلة (147 إلى 170).
- فخّاريات (171 إلى 204).
- داخل الخارج (205 إلى 216) : وقدم لها بإهداء إلى عمال مطبعة فضّالة (1985-2005).
- هوامش القدّيس أوغسطين (217 إلى 256) .
- الميلاد الثاني (257 إلى 276).
- حفْل (277 إلى 292) .

وتضم هذه العناوين عناوين فرعية أخرى.

إن قراءاتنا المتكرّرة لما جاءت به نصوص " هذا الأزرق" تدفع بنا إلى اللّبس والارتباك والحيرة، لأنها نصوص تخوض في ما يسمّيه النقّاد ثنائية (الشّعر ، النّثر) ثم ما عُرف بـ (الأجناسية)، ولأنها نصوص تعيد إلينا قضية الحدود بين الشّعر والنّثر، لتتناسل أسئلة عديدة منها ما ألف المشتغلون بالنّقد سماعه ودراسته وهي :

- أين يبدأ الشّعر وأين ينتهي ؟
- أين يبدأ النّثر وأين ينتهي ؟
- ما هي حدود التقاطع والتماس بين الشّعر والنّثر ؟

ثمّ هل لهذا العنوان أو ذاك نصيبه من الشّعرية أو من النّثرية ؟

وهل يستطيع العنوان أو مجموع العناوين أن تحقّق هذه العلائق الجوهرية بين الشّعري والنّثري وتحديدا علائق التفاعل بين المكوّنات النصّية لتحقيق شعرية النصوص أو نفي الشّعرية عنها ؟

إذن ــ في اعتبارنا ــ تتراءى لنا العنونة مكوّنا آخر ــ خفي ظاهرــ يمكن أن يضاف إلى المكوّنات الأساسية (مكوّن اللّغة، مكوّن الصّورة، مكوّن الوزن (الإيقاع))، باعتبار أن العنوان " في النقد الحديث" قد يكون هو المنبت وهو الأصل والفرع والأوراق

ويقودنا هذا إلى الإحاطة بـ عتبات العنوان ودلالاتها، وإلى التساؤل: إلى أيّ مدى وفق الشّاعر أو خاب في تشكيل عناوين نصوصية، ليستدل بها النّاقد فيما بعد في إضاءة ما حوته مكوّناتها إن على مستوى اللّغة أو الصّورة أو الإيقاع .

إنّ اختيارنا للشّاعر محمّد بنّيس كان قصديا لاعتبارات منها :

- ضلوعه في النّقد ووعيه به، ومن ثمّ وعيه بالشّعر وحرفة صناعته .
- ديوانه (هذا الأزرق) وهو من أواخر دواوينه (2015) لا نعتقد أنّه نال دراسة نقدية مشابهة لدواوينه السابقة .
- تميّز نصوصه على مستوى العنوان الرئيس والعناوين الفرعية.
- كفاءة محمّد بنّيس فهو إضافة كناقد وكشاعر للنّقد والشّعر المغاربيين والعربيين.
- محاولة التميّز في السّبق لمواجهة نصوص هذا الديوان.
- .... وغيرها من الدّوافع الموضوعية والذّاتية .

عتبة العنوان :

يعتبر العنوان علاقة جوهرية للمصاحب النّصي، رغم اختلاف النّقد في صياغة وضعه الاعتباري فهو مكوّن خارجي، ومكوّن داخلي أي جزء من النص الشعري[1].

إن شعرية العنوان لا يمكن أن تتأسّس دون مراجعة نقدية لمثل كذا تحديدات مما يقف النقّاد على تسميته بـ موضوع العنوان وتقسيماته (عنوان مركزي، رئيس)، (عناوين فرعية) والانتباه إلى تجاوز (عنوان، ثانوي) إذ القراءة النّقدية المعاصرة تستبدله بـ (عنوان فرعي) لأن هذا الأخير يحقق الاتّساق والانسجام للنّص الشّعري وينفتح على ظاهره وباطنه .

فضائية العنوان :

يحتل العنوان في النظام الحالي للطّباعة والنشر أربعة أماكن [2] :

1- منصر نبيل، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، المغرب، ط1، 2007، ص38.

2- المرجع نفسه .

أ. مقدمة الغلاف .

ب. ظهر الغلاف : وقد أشرنا إليهما في بيبليوغرافيا الدّيوان .

ج. صفحة العنوان (هذا الأزرق _شعر_) بلون بنّي وصفحة غلاف رمادي.

د. صفحة العنوان المختصر (هي نفسها) ولكن بلون أسود وصفحة بيضاء.

وهي مواقع أربعة تعضد سلطة العنوان المركزي وتجعل منه دالاّ أكبر .

زمنية العنوان :

إنّ تحديد زمنيّة العنوان، وزمنيّة العناوين الفرعية يمكن أن يطرح ارتباكا لدى النّاقد والشّاعر معاً، (كفكرة العنوان أو مشروع العنوان أو مسودّة العنوان، لما قبل النص وأثناء تشكيله وما بعده، أو حتّى الإهداءات والمقولات والرّسومات والخطوط ...وغيرها).

وفي العنوان وما يتعلق به يمكن أن نعود إلى مصطلحات نقدية عديدة منها :

انحراف العنوان، ووظائف العنوان، عتبة الإهداء، وانزياحاتها ، وعتبات التصدير، والاستشهادات ....) ولأن اليوم الدّراسي الموسوم " بالعنونة " يستدعي منّا الالتزام بمطالبه وحيثياتها، وجب الوقوف عند (مكوّن الزّمن) وتقاطعه مع تلك العناوين .

هذا الأزرق لـ محمّد بنيس(*) :

إنّه النموذج الثاني بريشة اللّون ينتقيه محمّد بنيس، فهو قبل هذا العنوان كتب مجموعة (العبور إلى ضفاف زرقاء)[1]، لإعلان أهمية لغة الألوان كمكوّن نصّي لصياغة الشّعر، والعنوان هنا مصاحب نصّي أيضا يوحي ويعيّن ويصف ويدلّ على تفاصيل النصوص التي يحتويها الدّيوان :

- هذا الأزرق جملة اسمية : فيه تحديد يحيل على الأزرق !
- هـ + ذا يحدد ، الأزرق : فيه صفات وخصائص مشدودة إلى فضاءين:

الأزرق فضاء البحر

فضاء السّماء بما فيهما من سعة وعمق وشفافية وسحر وأسرار

والأزرق هو البحر: فضاء للمغامرة والتجارب، حيث يتعانق الموت والحياة .

* صدر للشّاعر محمّد بنّيس قبل هذا الدّيوان أعمال أخرى شعرية منها : مواسم الشرق (1986)، ورقة البهاء (1988)، هبة الفراغ (1992)، كتاب الحب(1995)، المكان الوثني (1996)، نبيذ (متتاليتان شعريتان) (1999)، تهرين جنازتين (2000)، سبعة طيور (2011) ، ..... وغيرها

1- عُد إلى (العبور إلى ضفاف زرقاء_شعر_ ، دار تبر الزمان، تونس ، ط1، 1998، الديوان ، ص 3.

فمع البدء يعلن محمّد بنّيس أهمية موضوعاته من خلال انتقاء عنوان فيه دلالات بذاتها منها : ما يشير إلى نشوة اللّون ونشوة الكلمة (الشّعر) ، وبينهما وفيهما انخطاف الجسد لتجاوز محنة المكان والزّمان العربيين، وكأن بنّيس يؤكّد ويصرّ على تجربة الكتابة الشّعرية وانعطافاتها بهذا الأزرق مثلما ألفناه في (كتاب الحب) !

فكأنه يستبدل عنوان (كتاب الحب) بـ (هذا الأزرق) لأن القاسم المشترك بينهما هو: مغامرة الإنسان (العربي) في أهوال المكان العربي في انعطافات الزّمن العربي، ليصرخ (أنا موجود)، وشاعرنا بنّيس يعيد كتابة نصوصه لكن بطرق مختلفة تكاد تكون روافد لنهر واحد هو (معنى الدّهشة والرهبة والرّيبة) مثلما يؤكّد هو ذاته، كأنما هي الأمكنة والأزمنة تتقاطع في ذات الشّاعر في تخمينه، وتصبُّ في حتمية مواجهة الموت بكلّ أشكاله .

اختار " بنّيس " عنوانا أوّل فرعي هو " أثر " لنصّ شعريّ يقول بوجه ومكبوتاته بلغة " اللون الأزرق " وبلغة الصّمت والسكون والأنفاس وأيضا بلغة الهندسة : (لغة الأمكنة بكل أبعادها العمودية والأفقية والدائرية) فهو يقول :

تحت شجرة الصّمت..../يركب..../ركب المكان..../ ركب الدّراجة [1]

ونصادف المعجم اللّغوي (انحدرت.../ أسفال ..../ خلف ..../ الرحيل ..../ الإقامة ...) [2]

ونصّ (أثر ...) ينتمي إلى عنوان المجموعة (نحو الأزرق) هذا الأخير يندرج ضمن العنوان الكبير للدّيوان (هذا الأزرق) :

إن عنوان النص جاء نكرة ..(أثر) وتقاطع مع قوله (دراجته كانت الأثر) معرفة ، يقول :

لم أعد أذكر متى جاء في الأزرق [3] ← الأزرق

وتحت شجرة الصّمت ظلّ يهدل (الصّمت / يهدل)

←

أسف النظر

زرقة واحدة الأزرق

هذا الأزرق لم يكن عنّي غريبا ←

1- الديوان ، ص 4، 5 ، 6 .

2- نفسه .

3- نفسه .

مع ذلك أحسست كما لو كنت أوّل مرة أراه

ما بدا كان يحضر في القصيدة الشعر يتجاوب مع الرّحيل فصدى الأزرق هو صوت القصيدة

خلف طبقات السّحاب من ذوات الرّمادي هو الزمن الجاثم على الأزرق

هو المكان الذي يحاصر الأزرق

فالشّاعر يمتطي المجهول ويسافر (لا سحدّد الوجهة) بدقّة .

فطريق الأزرق (مجهول – معلوم) : إنهما يتبادلان الأدوار ويتأرجحان على حبل الزّمن وحبل المكان ويظلاّن غامضين .

يقول بنّيس : كان منعزلا في الرّحيل وفي الإقامة

فالمقطع الشّعري :

يصف الأزرق له :

1. العزلة (منعزلا) : في الحضور وفي الغياب / الإقامة والرّحيل .
2. المواجهة (يرفع أكمامه) : في عراك دائم مع الزّمن والمكان والنّاس .
3. لغة الجسد : (يلوّح بيدين نحيلتين) تحاور الرّوح (الأنفاس) .

وفي قوله : كان يبحث

عن كلمة أكبر من الزّمن ← كلمة ← أكبر من الزّمن

أخت السّماء

صديقة البحر

أخت السّماء

صديقة البحر ← والبحر هو الأزرق

لقد كرّر الشّاعر (كان) ثمانية مرّات كان ← X 8

ثمّ قال (... به يكون) إنّه إثبات الوجود في ساح المواجهة

وإذا عدنا إلى ما سبق فالشّاعر بنّيس يوحي بـ :

كلمة الشّقاء والذّات المعذّبة لأنها كلمة تقاوم لتقول الحقيقة وتثبت الذّات

وهي كلمة مقدّسة (هي كلمة الموت والبقاء) في آن .

وهي كلمة تقال باللّون الأزرق السماء ، الزّمن ، البحر ....

بما يرتقي الأزرق من الإنسان العربي المعذّب في المكان والزّمان

إلى مرتبة الإنسان الرّائي الّذي يتطهّر بتلك العذابات :

يقول " بنّيس " : حذر من النّار

حاملا صوت هذا الأزرق

يضيء كفّاً

في عتمة

لا تدرك منتهاها ....

فالنّار رمز الطهارة، أما الصّوت (الأزرق) فهو يضيء (مقدّس) كفّاً

فلغة الجسد تحاور لغة الرّوح والأنفاس

والأزرق يعلو المكان ويغمره ويحتويه ويهزمه .

ويواصل الشّاعر يوجه بقوله :

وما يثبت في السّريرة

ينزل عاصفة

هي مركز

الصّمت ، مازلت

أنظر إلى ما لبست أنا

نقطة قصوى

ترتج في الأنفاس [1]

1- عُد إلى الديوان ، ص 6، 7 ، 8.

سيحضر الشاعر أجواء القداسة والأنبياء ليقاوم الزمن العربي وليغيّر المكان العربي، بل يحاول بتبديل الأزمنة والأمكنة :

فمن دلالات الأولى (الأزمنة) : تنادي، ينفذ، فجر خفيفا، بزوغ ....

ومن دلالات الثانية (الأمكنة) : الأقاصي ، الأرجاء

وفي النص يستخدم الشاعر ما يبدو من المتناقضات ليثبت وجوده :

(السّريرة، العاصفة)، (الصّمت، ترتج)، (مازلت، لست أنا) ؟

وفي نص (أثر) يكرّر الشّاعر كلمة الأزرق سبع (07) مرّات .

ليؤكد على التشكيل البصري، فالأزرق حاضر مع الشاعر أبدا، ثم يعاودنا الشاعر إلى حكاية (الأثر) بقوله : أثر وحده

في يوم يطول

على مقربة من أصابعي

كأنما يأس وأمل معاً ينسجمان

من

المسرح

لا حدود بين الأزرق واللا أزرق داخلي ....

في غرق

هو العروج دائما

يتّقد حلم أن أشاهد

الأزرق

بين الأضلاع واثبا

متدفّقا ومن التشكيل البصري : أفقية النّص وعموديته وهذا التناوب بين الفعلي والاسمي ولعبة البياض والسّواد

: من ← المسرح ، في غرق ، الأزرق واثبا

ثمّ قوله في نهاية نصه :

في –

ليل–

أو –

نهار– [1]

أما دنيامية النص وحركية إيحاءاته فتكمن في استعمال الشّاعر أسماء الفاعلين بشكل ملفت ومنها قوله :

بين الأضلاع متدفّقا

واثبا

منهمرا في شوارع الأعصاب

جارفا ما انكسر منّي

متملّكا إرادة أن يهمز النّداء

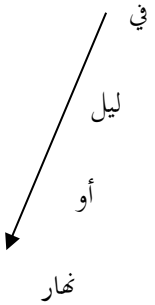

في كلّ ما سبق من قصيدة (أثر) وغيرها من قصائد الدّيوان الكثيرة يعالج محمّد بنّيس قضية الإنسان العربي في مواجهة مصيره المجهول، وفي عراكه المستمر مع المكان والزّمان العربيين: فضي صمته الطويل معركة استشهاد طويلة، وفي أنفاسه وقصيدته وبوجه معركة أشدّ ضراوة وأكثر استشهادا:

في رأينا استطاع الشّاعر أن يقول قصيدة الهجاء السّياسي بامتياز ليؤكّد على حضور الازرق في كلّ الأمكنة وكل الأزمنة، وأن دلالات الأزرق الحاضرة والقادمة هي امتدادات لدلالات الأزرق الآتي من الماضي: من ثقافتنا الشّعرية العامية والفصيحة (إلى دلالاتها التكنولوجية الخطيرة الأخيرة).

1– عُد إلى الديوان قصيدة (أثر)، ص 9، 10.